مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 08 عدد: 02 السنة 2022 E-ISSN:2588-2325

"الآليات المنهجية لجرد التراث الثقافي اللامادي: ولاية المدية تجربة وأنموذجا"

Methodological mechanism for inventorying the intangible cultural heritage: The wilaya of Medea, an experience and a model.

زهية بن عبد الله *، أستاذة بحث "أ" بالمركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، علم الانسان والتاريخ CNRPAH/ الجزائر ، zahia_ben77@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2022/11/09 تاريخ القبول: 2022/12/09 تاريخ النشر: 2022/12/30

ملخص:

الكثير من الباحثين وطلبة الدراسات العليا والأساتذة الجامعيين وذوي الاهتمام والاختصاص يتساءلون عن كيفيات جرد التراث الثقافي اللامادي وآليات تحديده. كما يتساءلون عن فحوى هذا التراث ومضامينه وماهياته. وقد يحبطون أحيانا أمام قلة التجارب في معالجة هذا الموضوع وقلة النشر الأكاديمي في هذا المجال. قد تختلط عليهم المصطلحات والمفاهيم ولا يجدون من يبيّن لهم ذلك. من خلال هذه الورقة نريد توضيح بعض المسائل المتعلقة باتفاقية اليونسكو 2003 لصون التراث الثقافي اللامادي، حيث يأتي مطلب الجرد الوطني في الاتفاقية كبند أساسي وضروري وقبل أي ترشيح دولي للتسجيل على أحد قوائم اليونسكو.

تهدف أيضا من خلال هذا السياق، إلى تقديم نموذج عن حيثيات تطبيق هذا المطلب والجزائر من بين الدول المصادقة على الاتفاقية. أين سوف نتطرق إلى نقل تجربة جرد التراث الثقافي اللامادي لولاية المدية، بأطرها المؤسساتية والنظرية والمنهجية وبحيثياتها ونتائجها الميدانية، حيث تعد هذه الدراسة من بين التجارب الرائدة في إعداد قوائم الجرد الوطني.

الكلمات المفتاحية: اتفاقية اليونسكو 2003، التراث اللامادي، أنثروبولوجيا، المدية، مونوغرافيا

* المؤلف المرسل

Abstract :

Many researchers, postgraduate students, university professors, and specialized people wonder about the methods of inventorying intangible cultural heritage and the mechanisms of its identification, content, concepts, and definitions. Due to a lack of scholarly publications as well as feedback on the treatment of this subject, these individuals are perplexed and frustrated because they cannot find enough information.

Through this contribution, we would like to clarify some issues related to the 2003 UNESCO Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage. Algeria is among the first signatory countries. The requirement of a national inventor is outlined in the Convention as a fundamental requirement prior to any application for international inclusion on UNESCO lists.

We will discuss the experience of inventorying the intangible cultural heritage of the wilaya of Médéa, its research methods, its proficiency, and its field results. This study is part of the pioneering experiences in implementing a portion of the convention and developing national inventory lists.

Keywords: UNESCO 2003 Convention, intangible heritage, anthropology, Medea, monograph.

مقدمة:

يعد الاشتغال على مواضيع حماية التراث الوطني والعالمي، أحد الهواجس التي أصبحت تشغل انتباه الدول خصوصا وأن العالم اليوم أصبح يعرف تهديدات سياسية وأمنية وبيئية وصحية وغذائية كبيرة وخطيرة تتوعد موروثات الشعوب الطبيعية والثقافية بالهشاشة وتعرضها لخطر الاندثار. كما أردفت العولمة وما يصاحبها من تطورات تكنولوجية وتغيرات اجتماعية قيمية ثقلها على الثقافات المحلية محاولة القضاء على الممارسات العتيقة والتجارب المتواترة والخصوصيات الفردية والجماعية مقترحة البديل وغير آبهة بأهمية ربط الأجيال بحلاقاتها الزمانية ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

مقابل هذا الرهان وهذه التحديات وبمصادقة الجزائر على اتفاقيات اليونسكو لصون التراث الثقافي اللامادي منذ سنة 2003 (اليونيسكو)، أصبح طوع اللازم المسارعة إلى ترسيخ تقاليد ومبادئ في البحث قصد ايجاد حلول لحماية الممتلكات الثقافية للوطن والسهر على توثيقها وتدوينها

وذلك بداية من عمليات تحديد وجمع وجرد التراث إلى حد ترشيح بعض العناصر التراثية للتسجيل الدولي على أحد قوائم اليونسكو.

تهدف هذه الورقة إلى تسليط الضوء على بعض أدوات اليونسكو لصون التراث الثقافي اللامادي PCI وكيفيات استعمال هذه الأدوات في دراسات الخبرة المتعلقة بعمليات جرد هذا التراث وتوثيقه وتعزيزه. بالإضافة إلى الدراسات المونوغرافية والأنثروبولوجية سوف يدور الحديث حول تجربة البحث الولائية التي مست منطقة المدية كنموذج رائد لهذه العمليات.

1. اتفاقية اليونسكو لصون التراث الثقافي اللامادي الماهية وأهمية قوائم الجرد:

في هذا السياق، يقصد بعبارة "التراث الثقافي غير المادي حسب ما تمليه الاتفاقية، "تلك الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحيانا الأفراد، جزءا من تراثها الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلا عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة ومع تاريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من ثم احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية. ولا يؤخذ في الحسبان لأغراض هذه الاتفاقية سوى التراث الثقافي غير المادي الذي يتفق مع الصكوك الدولية القائمة المتعلقة بحقوق الإنسان، ومع مقتضيات الاحترام المتبادل بين الجماعات والمجموعات والأفراد والتنمية المستدامة". إذن، فالتراث في هذه الوثيقة الدولية يدرك بوصفه بوتقة للتنوع الثقافي. من خلاله يمكن ادراك جملة من العلاقات المتعددة الروابط: من خلالها يتم التأكيد على علاقة الأفراد ببعضهم البعض، وعلاقتهم بتاريخهم، وبمعارفهم، وبمنجزاتهم، وبفضاءاتهم المعيشية،... وإدراك أهمية ذلك في تعزيز الانتماء الهوياتي وضرورة احترام الآخر. كما يتم التأكيد على أهمية نقل هذا التثمين من معارف ومهارات وممارسات ما بين الأجيال ما دام ليس فيه ما يشين علاقة الانسان بأخيه الإنسان، أو فيه مجلبة للضرر للطبيعة أو الحيوان.

أما مفهوم صون التراث الثقافي غير المادي حسب الاتفاقية، فيقصد منه "تلك التدابير الرامية إلى **استدامة** التراث الثقافي الغير مادي بما في ذلك **تحديد** هذا التراث **وتوثيقه وإجراء البحوث بشأنه والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه و ابرازه ونقله** لاسيما عن طريق التعليم النظامي وغير النظامي **واحياء مختلف جو انبه**(UNESCO, 2020) وهذا يعني أن في مهمة الصون هذه هنالك عدة مسؤوليات قد تتداخل سياقاتها، لكن، لكل منها مجال قائم بذاته.

إن مصادقة الدول على اتفاقية اليونسكو 2003 لصون التراث الثقافي اللامادي يجعلهم في ضرورة (UNESCO، 2018، صفحة 9)، جرد موروثاتهم الوطنية وإن كانت هذه الاتفاقية وثيقة تسمح بصياغة غالبية موادها بعبارات غير إلزامية، مما يمنح الحكومات بعض المرونة في تنفيذها. إن إعداد

قوائم الجرد هو أحد الالتزامات الأساسية الغير متنازل عنها والتي حرصت بنود الاتفاقية على ضرورة انجازها وهذا يتضح جليا من خلال النصوص التوجيهية والتنفيذية للاتفاقية(ICH Operational) .

تعد عملية إعداد قوائم الجرد، عملية إحصاء وتحديد لجملة من العناصر التراثية الموجودة إما في مجتمع معين، لدى المجموعات أو لدى الجماعات أو لدى الأفراد لأجل التعريف بها وتوثيقها. إنها عملية يقصد من وراءها تميّز وتبيّن الموروث المحلي والسعي إلى توثيقه ونقله ما بين الأشخاص والمجتمعات والأجيال. إن هذا الجرد من موجبه الحث على احترام التراث الثقافي غير المادي للمعنيين من الجماعات والمجموعات والأفراد والتوعية بأهميته على الصعيد المحلي والوطني والدولي وطلب تعزيز التعاون الدولي والمساعدة الدولية في بعض المرات فيما يخص تدابير حماية أي عنصر مهدد بخطر الزوال (UNESCO، 2018، صفحة 29).

2. تجربة جمع وجرد التراث الثقافي اللامادي الولائية: ولاية المدية كتجربة رائدة

تعتبر تجربة جرد التراث الثقافي اللامادي في ولاية المدية (2012- 2014)، تجربة رائدة، تمت عن طريق دراسة خبرة استعملت فيها تقنية المسح الشامل، ويعني ذلك الجرد الكامل لموروث الولاية وليس الاشتغال على عنصر واحد متفرد[†]. إنها من أول الدراسات المؤسساتية التي ينزل فيها فريق عمل من الباحثين إلى الميدان من أجل جمع المادة التراثية ومن أجل العمل لمدة معينة على كامل تراب الولاية.

إن هذه الدراسة وليدة حاجة اجتماعية قبل أن تكون وليدة قرارات سياسية، إلا أن تحقيقها لم يكن له أن يتصور بهذه الدرجة لولا الارتباطات والالتزامات الدولية. ففي الجزائر لا يختلف اثنان حول الأهمية العلمية والثقافية التي توليها الجامعة في تكوين فرق بحث وخبراء مختصين في البحث الأنثروبولوجي. كما لا يختلفان حول المجهودات الجبارة والخيارية التي يبدلها العديد من المثقفين الجزائريين في تدوينهم لموروثهم الثقافي، إما لأن ذلك من هواياتهم، أو لأن ذلك من متطلبات مستوياتهم الأكاديمية والثقافية، أو لإحساسهم بأهمية المسؤولية التاريخية. ولقد صادفنا زمن هذه الدراسة العديد من العصاميين وهواة البحث ممن الذين أبو إلا وأن يكرسوا وقتهم ومجهوداتهم لخدمة التراث الثقافي. وكان فقهم في ذلك يتعدى فقه الكثير من طلاب الجامعات وخريجها، لولا بعض النقص في الأداء المنهجي الظاهر من خلال تجاربهم الكتابية.

من أجل تدارك هذه الهفوات المنهجية، كان على فريق العمل تنظيم عدة أيام دراسية أولا من أجل التعريف بماهية التراث وبالضبط التراث الثقافي اللامادي، وثانيا لأجل التعريف بالأدوات المنهجية التي بمقدورها المساعدة على جمع المادة التراثية وتبويبها وفق آليات الجرد المتعارف عليها.

[†] كما هو الحال حين إنجاز الملفات الدولية التي تتطلب بطاقة جرد واحدة خاصة بالعنصر قيد الترشيح.

1.2 حول إشكالية الدراسة:

دارت إشكالية الدراسة، حول التساؤلات التالية: نحصر ماذا وأين وكيف؟ بأي الأدوات المنهجية؟ هل نستعمل المنهج الكمي أو نبني على أدوات البحث الكيفي؟ كيف نُصيّر الكم كيفا في مدة قصيرة من الزمن؟ كيف يمكن توزيع العمل بين الباحثين بطريقة تأخذ بعين الاعتبار خصوصيات الأفراد وأعرافهم؟ كيف يمكن أن نصنف المادة المجموعة؟ كيف يمكن تحرير تقاريرنا؟ مع قلة الدراسات المنوغرافية حول منطقة المدية، وقلة الدراسات الأكاديمية الجادة، من أين سوف ننتقي مرجعيتنا النظرية؟ وفي الحقيقة، وحده الزمن كان كفيل بإجابتنا عن هذه التساؤلات وألفة البلاد والعباد.

2.2 حيثيات اختيارولاية المدية كتجربة رائدة لحصر التراث الثقافي اللامادي(PCI)

تأتي هذه الدراسة وفق مسار متعدد الاتفاقيات وهي : اتفاقية اليونسكو مع الجزائر، اتفاقية مديرية الثقافة للمدية بتفويض من وزارة الثقافة مع مركز البحث الوطني في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ (C.N.R.P.A.H)[‡]. عهد بالمهمة من قبل هذا المركز إلى باحثيه.

عن هذه الشراكة الأخيرة تمخضت حيثيات دراسة دامت أكثر من سنتين حول أحواز ولاية المدية، كان الهدف منها جمع وجرد وحصر أهم الممتلكات الثقافية اللامادية التي تميّز الولاية والسعي إلى تصنيف هذه الممتلكات وفقا لما تقتضيه اتفاقية اليونسكو 2003. وعليه، مرت الدراسة بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: لقد تميزت هذه المرحلة في بدايتها بإجراء بعض اللّقاءات الرسمية مع السلطات المحلية من رؤساء بلديات ومندوبي الثقافة وبعض أعضاء من الولاية، كما عرجت على معظم المديريات بداية من مديرية الثقافة ومديرية السياحة والصناعات التقليدية بغرفتها (غرفة الصناعات التقليدية) ومديرية الشؤون الدينية ومديرية الفلاحة... فكانت هنالك العديد من اللقاءات مع المدراء وممثليهم. كما كانت لنا زيارات متكررة لمتاحف الولاية وزواياها وجامعتها... تضمنت هذه المرحلة من البحث أيضا الاتصال بأفراد من المجتمع المدني، حيث لعب التواصل مع الجمعيات المحلية دورا مهما في بلورة شبكة الاتصال المبدئية وبداية تحرير ورقة العمل الأولية.

[‡]عرف المركز سنة 1955 تحت مسمى (C.A.R.A.P.E) أي المركز الجزائري للبحوث في الانثروبولوجيا وفي عصور ما قبل التاريخ والاثنوغرافيا ، ليصبح بعد الاستقلال في 1964 المركز الوطني للبحوث في الانثروبولوجيا وفي عصور ما قبل التاريخ والاثنوغرافيا (C.R.A.P.E)، وفي 1984 يتحول اسمه إلى المركز الوطني للدراسات التاريخية أي (C.N.E.H). أما تسميته الحالية(C.N.R.P.A.H) المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ علم الانسان والتاريخ، فتعود إلى سنة 2003.

في هذه المرحلة من الدراسة، كان الإطار النظري له دور كبير في إعطاءنا خلفية معرفية للمقوّمات التاريخية والطبيعية والاقتصادية والبشرية لاسيما للولاية ولكن أيضا لكامل منطقة المتيجة والأطلس البليدي الكبير (خدوسي، 2013) (الجيلالي، 2007). ومن شبكة القراءة، بدت أهمية التطلع على الدوريات الإحصائية للبلديات (RGPH, 2008) والتقارير الولائية والمنوغرافيا (ANGEM, 2013)، (CNAC, 2005)، (DPAT, 2011)، والاشتغال على الأعمال الأكاديمية الجامعية وجميع المنشورات العلمية والثقافية التي تخص أحواض وأحواز المدية الثقافية، إلى جانب التطلع على المواقع الافتراضية لمديريات الولاية. بعد ذلك انطلقت حَمْلةُ اتصالات أولية بمخبرين ومرشدين أوليين، ثم بحَمَلةْ التراث المباشرين.

المرحلة الثانية: هذا الجزء من العمل خام وصعب. فالولاية كبيرة ومتشعبة تتضمن حوالي 64 بلدية و 19 دائرة وتمتدّ على مساحة 8700 كلم^2 وهي أيضا غنية ومتنوعة ثقافيا. وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد جهة معيّنة تملك معرفة متكاملة عن ممتلكاتها الثقافية، وإنما يجب التنقيب على ذلك. إنه عمل دقيق، يتطلب طول النفس لأنّ حاملي المعارف والمهارات في الحقيقة لا يدلون بها إلى أي شخص كان، فكان علينا أوّلا كسب ثقتهم قبل الانطلاق في المهمة وذلك كان الزمان كفيل به واخلاص الباحث ومهنيته. كما كان لنا مرشدين من أعيان المنطقة قدّموا لنا يد العون وربطونا بمن يعتبرونهم من حاملي التراث الثقافي من أفراد وعائلات وساعدونا على معرفة أسرار وخبايا المجتمع وتقاليده بكل أمانة.

في شهر ماي 2013 أثناء شهر التراث، نظمنا يوما دراسيا، قدمنا فيه حيثيات تقدم البحث. حيث استضفنا بعض الأعضاء من المديريات التي سبق ذكرها ومجموعة من الأعيان والعائلات العريقة من المجتمع" اللّمْداني" أو " الماذْني" كما يوصفون، على غرار باقي ممثلي المجتمع المدني من جمعيات مهتمة بالتراث وحرفيين معروفين في المنطقة واعتبرنا هذا اليوم يوما تحسيسيا بأهمية التراث وماهيته وبأهمية عملية الجرد. وكان ذلك أيضا يوما لدعوة أبناء المنطقة من أكاديميين وموظفين وحرفيين إلى الاهتمام بتوثيق جانب من التراث لأشراكهم في تقاليد البحث والتثمين لتراثهم.

فإن كانت مهمة باحثي المركز تنتهي عند انتهاء المدة المحددة د في دفتر الشروط، فإنّ مهمة أبناء المنطقة الغيورين على تراثهم لا تنتهي بمغادرتنا، ولكن يبقى هدف الجرد قائما بينهم والسعي إلى تدوينه واجب يجب السعي إلى استمراريته وفقا للقواعد المنهجية التي تحصلوا عليها متى كنا بينهم. وهذا ما قمنا بزرعه في نفوس بعض الجمعيات وحثينا عليه بعض الطلبة الجامعيين والأساتذة وخصينا به أعضاءً آخرين من مديرية الثقافة.

في هذه المرحلة، تطورت نظرتنا لموضوع الجرد وتقنيات الإلمام به خصوصا بعد ترددنا على بعض حاملي التراث الذين هم أنفسهم دلونا على آخرين. أدركنا بعد المعاينة الميدانية أنّ ولاية المدية

ثقافيا، تختلف من بلدية إلى أخرى سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون وأنّ كل منطقة فيها تنوع ثقافي وتفرد مقارنة مع منطقة أخرى وأن التحديد الاداري لم يكن ذو فائدة منهجية في توزيع الدراسة، لذلك لجأنا إلى الاشتغال على مناطق الولاية وفقا لتوزيع الأحواض الثقافية. فأعدنا تحديد خطة العمل. ونقصد بالأحواض الثقافية هنا تلك المناطق التي تتشابه فيما بينها في العادات والتقاليد والممارسات الاجتماعية والتي لها طابع جهوي معين.

لإنهاء المرحلة الثانية من الدراسة، نظمنا يوما دراسيا ثانيا بتاريخ 27 جانفي 2014 لفائدة سكان الدوائر والبلديات الداخلية كبوسكن وبني سليمان والبرواقية وعين بوسيف... إلى جانب دعوة أعيان مدينة المدية والسلطات المحلية. في هذا اليوم، قدمنا جزء من تقدم أشغال الدراسة بالإضافة إلى ورشات عمل. وكان الهدف من وراء تلك المبادرة، تقييم وإثراء العمل وتدارك ما نكون قد نسيناه أو أهملناه في جمعنا لمادة البحث والتحسيس بأهمية التراث الثقافي اللامادي.

لأجل تنفيذ دراسة جرد التراث الثقافي لمنطقة "التيطري"، استعملنا كل من المقاربة الكمية والمقاربة الكيفية. المقاربة الأولى سمحت بإعطائنا نظرة شاملة حول إحصاء العناصر التراثية ومعرفة مدى تداولها وعليه هل هي مهددة بالزوال أو لا. والمنهج الكيفي، سمح بالتدقيق في غرض البحث. فبعد أن يتم الاتصال بالأشخاص الذين لا يزالون يستعملون أو يمارسون هذا أو ذاك العنصر التراثي، يتم تحديد موعد للمقابلة. وكثيرا ما كان الفضل يرجع للمجتمع المدني في تسهيل اللقاءات واكتساب المعلومة والمرافقة. وهنا نشيد بالدور الذي لعبته كل من السيدة نصيرة بلعزوقي والسيدة عائشة بوزريعي والسيدة خليل شرفي حميدة والسيدة جدو وردة، والدور الذي لعبه كل من السيد بهياني عبد السلام والسيد حاميتي أحمد وغيرهم كثير وكلهم تقريبا أعضاء في العمل الجمعوي.

لقد اعتمدت المقابلات بالخصوص على دليل المقابلة أين حددت مجموعة من الأسئلة المفتوحة والتي تفسح المجال كل مرة لمجموعة أخرى من الأسئلة نصف موّجهة. وكل سؤال تحدده نوعية العنصر التراثي المبحوث (إن كان من الممارسات الشعبية، أو الشفهيات، أو الحرف، أو أي عنصر من الميادين الخمس التي تقرها اتفاقية اليونسكو 2003) (UNESCO، 2018، صفحة 5) ، ومن هذه الأسئلة: وصف العنصر. مكان تواجده. نبذة تاريخية. الممارسين له من أفراد وجماعات ومجموعات. المراحل الأساسية لصنعه إذا كان حرفة (تقنياته/ مواده/ الأدوات التي تدخل في صناعته). الأدبيات التي تدور حوله : /الأساطير المرتبطة به / طقوسه/ الممارسات الشعبية... الأهمية التراثية وسبل ترقيته. طرق تلقينه أو انتقاله من جيل إلى جيل. التهديدات التي يعيشها العنصر. تدابير الصون للمحافظة عليه (مجتمع مدني/ سلطات الدولة). مدى مشاركة الأفراد والجماعات في تحديد تدابير الصون وفي إنجاز هذه البطاقة. مادة مرافقة: صور عالية الجودة / مادة فلمية/ ببليوغرافيا..

المرحلة الثالثة: كانت لتحرير الدراسة وانجاز التقرير النهائي. بعد ذلك إرسال نسخة منها إلى مديرية الثقافة وبالضبط مصلحة التراث من أجل مراجعة معطياتها ورفع التحفظات. بعد التعديل النهائي، ضمت النسخة الأخيرة قرابة 460 صفحة، وأعلن عن انتهاء العمل في 2014 بتسليم مؤلف مكون من جزئين: واحد خاص بالمادة المجموعة الخام ودراسة منوغرافية قصيرة، وآخر خاص بالبطاقات التقنية أو بطاقات الجرد. كما سلمت للمديرية كل أرشيفات الدراسة من صور وفيديوهات وتسجيلات.

3.2 الإحاطة بقدرات ولاية المدية التاريخية والطبيعية والجغرافية:

إنّ منطقة "المدية"، منطقة تاريخية عتيقة، عرفت تداول العديد من الحضارات وامتزاج العديد من الثقافات والأجناس، ولا يزال لحد الآن ساكنتها من الموريسكيين والأتراك الوافدين إليها زمن الحكم العثماني يعرفون بألقابهم وأسماء عوائلهم وحرفهم ومهاراتهم متمسكين متوالدين فيها.

ساكنة هذه المنطقة الجبلية المطلة على سهل المتيجة من جهة وعلى الأطلس التلي من جهة أخرى، من أصحاب الحرف، يحملون معارفا ومهارات تقليدية عتيقة قد لا نجدها في مناطق أخرى من الوطن بتلك النوعية وبتلك الكثافة سواء أكان ذلك في عادات الاحتفالات والمناسبات أو في تقاليد الحياة الاجتماعية اليومية العادية من فنون للطبخ وموروث اللباس ومقولات شعبية...

من أجل معرفة خصائص منطقة المدية الثقافية كان لابد من معرفة تقاطعاتها الجغرافية والثقافية والتاريخية مع مناطق الجوار وهذا ما كان بإمكانه أن يعطينا صورة شاملة واستشرافية عن كيفية توزع العناصر التراثية، عن خصائصها ومدى تداولها أو عن هشاشتها ومحافها بمخاطر الاندثار. فكان العمل على الأحواض الثقافية أكثر منه على المناطق الادارية. يعنى في المدن والقرى المتشابهة في العادات والتقاليد والممارسات الاجتماعية.

أولا: قدرات وخصائص مدينة المدية الطبيعية:

من الجانب الجغرافي، تقع ولاية المدية في قلب الأطلس التلي، تتميز بارتفاعها إلى حوالي 1200م وتتكون تضاريسها من سهول خصبة وسلسلة من جبال غير حادة. بهذه المنطقة، يمكن أن نميز حدود جغرافية مع عدة ولايات تجعلها تتداخل ثقافيا واقتصاديا، وتزهر مواريث مشتركة وهي: ولايتا البليدة والجزائر العاصمة ناحية المنطقة الشمالية. ولاية البويرة ناحية المنطقة الشرقية، حيث تقترب في الإقليم والعادات والتقاليد من عادات بلاد القبائل. ولاية عين الدفلى ناحية المنطقة الغربية، حيث تشترك في العادات الحضرية مع مدينة مليانة. أما ناحية المنطقة الجنوبية فتقترب من ولاية المسيلة وبوسعادة والجلفة وتيسمسيلت بإقليم شبه صحراوي يتميز بأسلوب حياة رعوي. وعليه، تشكل منطقة التيطري مفترق طرق بين التل والصحراء وبين الهضاب العليا الشرقية والغربية وتتأثر كثيرا بعادات وتقاليد سهل المتيجة.

ISSN: 2437-041X
E-ISSN:2588-2325

صورة رقم 1: خريطة ولاية المدية وحدودها الجغرافية

المصدر: من الويب

ثانيا: المؤثرات التاريخية :

في كل المجتمعات، للمحطات التاريخية دور في نشأة الفضاء وبلورة الهوية. وعليه فمنطقة المدية تعد منطقة تاريخية أثرية مأهولة منذ القدم حتى قبل مجئ الرومان الذين خلفوا فيها شواهد عديدة (مثل مدينة آشير). إلا أن تشييدها كمدينة يرجع إلى بولوغين ابن زيري ابن مناد الأمازيغي هذه ألف سنة ويزيد. ومن تمت، تولى حكمها العثمانيون، لتصبح عاصمة البايلك التيطري والذين رحبوا بقدوم بعض العائلات الأندلسية الحرفية. ولذلك لا تزال هذه التأثيرات التاريخية ظاهرة لحد اليوم في عادات وتقاليد اللمدانيين وحتى في أسماء عائلاتهم وعمرانهم وحرفهم ومعارفهم وفنون طبخهم (Aperçu historique de la wilaya de Médéa, 2011).

منطقة المدية منطقة ولادة، فقد أنجبت العديد من الأعلام والشخصيات التاريخية البارزة في الميدان الفني والسياسي والعلمي، كما اعتبرت أرض استقبال. ففيها قد ولد العلامة والأديب *محمد ابن أبي شنب* (1869 – 1926) الذي يعتبر من بين أوائل الجزائريين المتحصلين على شهادة الدكتوراه

في الأدب وكان يتقن عدة لغات. وبقصر البخاري بلدية بوغار ولد الممثل المشهور حسن الحساني المشهور باسم "بو بقرة" (1916- 1987). ولها ينتمي الموسيقار محبوب باتي (1919-2000). كما أنها مسقط رأس الشاعر الفرنسي جان ريشمان والموسيقار ليو لويس باربيس وبيار سيجيل. كما يعد المناضل السياسي بن خدة بن يوسف (1920-2003) أحد أبناء المنطقة. والمدية على حسب التوثيق التاريخي لليون روش وغيره كانت تعد دار إقامة للأمير عبد القادر.

4.2 بعض نتائج جمع التراث الثقافي اللامادي لولاية المدية، ملفات التصنيف:

فيما يخص عملية جرد العناصر التراثية، تم تقييم 22 عنصر، وكل عنصر يحتوي في حد ذاته على العديد من المعارف والمهارات التراثية المتعلقة إما بالخصوصيات اللغوية أو الأدبية أو الفنية أو بأسماء الأشخاص والأماكن والأشياء أو بأنواع وأصناف المواد التي تدخل في الصناعات والحرف وتقنياتها والتي هي في بعض المرات خصوصيات مشتركة، متقاطعة ومفسرة لبعضها البعض. وعليه، تم جمع الملفات التالية:

ملف رقم 1: التراث الثقافي اللامادي المتعلق بالأدب الشفهي والحكايات والأساطير التي غالبا ما نجدها تدور حول الماء ومنابعه وحماماته. إن قصص وحكايات تأسيس مدينة المدية تقترب من أساطير نشأة المدن المتوسطية (بونت و ايزار، 2006)، (Ben Cheneb, 2003)، (Bouzida, 2005)، (Carlier, 2000)، كما أنها تختلف عنها بحكايات خاصة بها. ففي الأساطير الشعبية، يقال أن مدينة المدية لم تكن موجودة في مكانها الحالي، ولكن علقتها الملائكة بين السماء والأرض، لتحميها من كل سوء، وكانت تعرف "بالمهذبة " (Bouzida, 2005, p. 203) وحسب ليون كورتاس، عن لسان *سيدي أحمد بن يوسف*[§] الولي الصالح أخذ مقولة " أن مدينة "المدية" مدينة محروسة من قبل الملائكة، فإذا دخلها الشر صباحا، لا بد أن يخرج قبل أن يسدل الليل لباسه " (Cortes, 1955)، ومن الأساطير والحكايات الشعبية الموجودة أيضا في المنطقة: أساطير حول الجن والغول والغولة (Desparnet, 1910)... وغالبا ما تدور أحداث هذه الأساطير حول منابع ومجاري المياه. مثل: أسطورة عين بوسيف، أسطورة عين الذهب، أسطورة عين أشرب وهرب (حناشة)، أسطورة عين العرايس (دراع السمار)، أسطورة عفسة البغل، خريفة بوغنجة...

ملف رقم 2: حياة الزهد والطرق الصوفية، كان الاهتمام فيه بالممارسات الشعبية المتعلقة بالزوايا، خصوصا "زاوية العيساوة" بوزرة، التي تعتبر الزاوية الأم في إفريقيا والتي تأسست على يد

[§] يعد الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الراشدي ولي صالح، ولد في القرن الخامس عشر (بالتقريب في 1446) بالقرب من ولايتا معسكر وغليزان وهو أحد رجالات مدينة "مليانة" التي تنسب إليه.

الشيخ أمحمد بن عيسى الشريف الإدريسي الحسني سنة 1570. والتي تتميز بطريقتها وطقوسها الخاصة (rapport de l'association religieuse de Zaouia-Mère de shaykh Ahmed Ben Aissa, 2008) ، ومن بعض زوايا المدية الأخرى نذكر: زاوية سيدي الصحراوي، زاوية سيدي البهلول بعين بوسيف، زاوية بوحمامة ببلدية العيساوية، زاوية الشيخ الميسوم بقصر البوخاري، زاوية سيدي علي بن شكاو، زاوية سيد أحمد بن منصور بتيزي المهدي، زاوية سيدي محمد الخيضر...

ملف رقم 3: متعلق بالحياة الاجتماعية والطقوس (طوالي، 1988): مثل طقوس الجنائز والأعياد وتنظيم الوعدات أو ما يعرف بالطعمة... فوعدة "حناشة" مثلا، هي مناسبة احتفالية طقوسية يحتفى بها مرتين في السنة، بداية شهر ماي وشهر سبتمبر وتمتد طيلة ثلاثة أيام، من السبت إلى الاثنين، وهي احتفالية تستقطب كما هائلا من الزوار الوافدين من تيارت، معسكر، غليزان، عين الدفلى، مستغانم...

ملف رقم 4: متعلق بتقاليد الاحتفالات والأفراح. هنا اشتغلنا على تدوين كل ما يتعلق بتقاليد الأعراس وأفراح تختين الأطفال وطقوس الأمومة من العناية بالأم والرضيع والاحتفال بالناير، كما لم يفوتنا تدوين كل ما يتعلق بتقاليد إحياء المولد النبوي.

ملف رقم 5: متعلق باللباس التقليدي والعناية بالجسد، حيث أخذت مسألة الزينة، الصحة واللباس، بعدا جوهريا، بالأخذ بعين الاعتبار طبعا الفوارق الجنوسية (رجال/ نساء) والفوارق الجيلية (صغير/ كبير). وفرة المياه في المدية والأثر الروماني والعثماني المورسكي وطبيعة المناخ سمح بازدهار ثقافة حمامات المدينة وتعددها. في ذلك نجد الرجال والنساء يشيدون بفوائد ممارسات الاستحمام في حمام سيدي سليمان وحمام السور وحمام برامول وحمام بن تركية، وفي حمام المسجد وحمام بن قيار وحمام لكحل وحمام بير لغواط وحمام الجديد (Carlier, 2000)، ولمعالجة البدن ونظافته (Zahar, 1956)، لم يتوانى البعض عن ذكر حمام "التوانسة" الذي يقع شمال غرب تابلاط وحمام ملوان (التابع للبليدة) والغير بعيد عن حمام مولاي أحمد الكائن بالعيساوية وحمام الرجايمية بدشرة أولاد القاضي (RGPH, 2008).

ملف رقم 6: متعلق بالصناعات التقليدية الحرفية: مثل حرفة" المجبود" والجلد والدوم وصناعة الفخار والطين والخزف، وصناعة الأدوات المنزلية التقليدية كالمهراس والكرويشة، وأدوات استخلاص الألبان والأجبان مثل الشكوة، وأدوات تعبئة المياه كصناعة القربة...

وبما أن النسيج واستعمال المنسج، خصوصية متداولة في المنطقة، اهتممنا بحرفة الصوف وحياكة البرنوس والزربية في منطقة شلالة العذاورة والمدية وسط ومنطقة الشهبونية.

ملف رقم 07: وخصص لفنون الطبخ ومهاراتها التراثية. أخذت الأطباق اللمدانية ووصفات انجاز المعجنات والحلويات التقليدية والمربى حصتها في هذا البحث، كونها أحد خصوصيات

المنطقة. فكون المنطقة تسمح بانتشار فلاحة الحبوب ونظرا لقساوة المناخ في فصل الشتاء، نجد عدة أطباق عالية السعرات الحرارية والمصنوعة ابتداء من السكريات والعجائن والدسم مثل: الرفيس والسفنج والمسمن والبغرير والمقروض والبقلاوة،... وبعد البرتقال يعد العنب ثاني فاكهة منتشرة في منطقة التيطري (خصوصا أحمر بوعمر) والذي نجده في وزرة وبن شكاو وسي المحجوب وعوامري... ما يشجع على تعداد الوصفات الغذائية المصنوعة منه. فبه يصنع الرُّب وتصنع حلوى العنب التي تعود إلى العهد العثماني والمهارة الأندلسية. من العنب يصنع كذلك الخل بطريقة تقليدية مثله مثل البياض، ومنه يصنع كذلك المربى والزبيب التي تحضر به أطباق المسفوف (الكسكسي). كما نجد قطاف السفرجل والرمان والكرز والتفاح والتين والتين الهندي والبرقوق... ما يعطينا قائمة طويلة من الفواكه ووصفات المربى التي لا تحصى ولا تعد. كما تشتهر أحواز المدية بثقافة ومهارات تربية النحل وتحصيل العسل الحر..

خاتمة:

يعد تراث مدينة المدية وضواحيها نموذج صادق عن القدرات الثقافية الثرية والمتنوعة التي تزخر بها الجزائر والتي لا بد من الاستمرار في العمل على ايجاد أدوات منهجية للإسراع إلى صونها خصوصا تلك المهددة بالزوال، علما أنّ مظاهر عديدة ترتبط بالتقاليد والممارسات في هذه المدينة العريقة قد اندثرت بحكم الحداثة والعولمة والتطور التكنولوجي. لقد أفصحت الدراسة على العديد من المهارات والمعارف والممارسات، وضعت في أكثر من 22 بطاقة تقنية، بالإضافة إلى الكثير من العناصر التراثية التي تم التطرق إليها دون أن توضع لها بالضرورة بطاقة تقنية خاصة.

يحمل التراث الثقافي اللامادي في جوهره معنى الملكية ومعني النقل والاستمرارية، إنه يحمل بين جوانبه معنى الابداع والمهارة والمعرفة التي تمررها الأجيال المتعاقبة فيما بينها على ممر تدرجاتها الزمنية. إن هذا التراث يأتينا من ماضٍ بعيد تعترف به المجتمعات، وترغب في استدامة وجوده. فهو ينتقل من جيل إلى جيل ويعاد إحياؤه على الدوام من قبل الأفراد والجماعات والمجموعات التي ترى فيه وتدا قويا لبقاءها واستمراريتها. إن هذا التراث بالنسبة لها عبارة عن وعاء تتبلور فيه مقوماتها الثقافية والهوياتية على ممر الزمن، لذلك فأي تهديد له، هو تهديد لها. إن مهمة تحديد وجرد وتدوين وتوثيق ودعم الموروث الثقافي اللامادي والتعريف به هي مهمة الحكومات والشعوب، كل له جانب من المسؤولية في الصون والحماية، وإلا، فحتما يكون مصيره الاندثار والتلاشي.

قائمة المصادر والمراجع:

(2011, 12 31). Consulté le 2022, sur Aperçu historique de la wilaya de Médéa: https://medea.mta.gov.dz/

ANGEM. (2013). *Monographie de la wilaya de Médéa.* Alger: ANGEM.

Ben Cheneb, M. (2003). *Proverbes de l'Algérie et du Maghreb.* Paris: Maisonneive et Larose.

Bouzida, A. (2005). *Dictionnaire des mythes algériens* . Algérie : CRASC.

Carlier, O. (2000). *Les enjeux sociaux du corps : le hammam maghrébin XIX- XX siècle.* Annales HSS.

CNAC. (2005). *Monographie de la wilaya de Médéa.* Alger: CNAC.

Cortes, L. (1955). *Monographie de la commune de Médéa/Alger.* Alger: Imbert.

Desparnet, J. (1910). *contes populaires sur les ogres, recueillis à Blida.* Paris: Ernest Leroux.

DPAT. (2011). *Monographie de la wilaya de Médéa.* Alger: DPAT.

ICH Operational. (s.d.). Récupéré sur Les directives opérationnelles : https://ich.unesco.org/doc/src/ICH-Operational_Directives-7.GA-PDF-FR.pdf

(2008). *rapport de l'association religieuse de Zaouia-Mère de shaykh Ahmed Ben Aissa.* Algeria.

RGPH. (2008). Donées du recensement général de la population de l'habitat . Médéa, Algeria: Site de l'ONS.

UNESCO. (2020). Récupéré sur Convention 2003: https://ich.unesco.org/doc/src/2003_Convention_Basic_Texts-_2020_version-AR.pdf

UNESCO. (2018). النصوص الأساسية لاتفاقية 2003 لصون التراث الثقافي اللامادي. *اتفاقيات دولية* . فرنسا: منشورات اليونيسكو.

Zahar, C. (1956). *Hammam Melouane ou le bain coloré.* Algérie.

اتفاقية اليونيسكو. (بلا تاريخ). *بنود اتفاقية اليونيسكو*. تم الاسترداد من Texte de la Convention : :pour la sauvegarde du patrimoine culturel immatériel https://ich.unesco.org/fr/convention

بيار بونت، و ميشال ايزار. (2006). *معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا*. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

رابح خدوسي. (2013). *بني ميسرة: الأطلس البليدي والمتيجة*. الجزائر: منشورات الحضارة.

عبد الرحمن الجيلالي. (2007). *تاريخ المدن الثلاث: الجزائر، المدية وملیانة* (الإصدار 1). الجزائر: دار الأمة.

نور الدين طوالي. (1988). *الدين والطقوس والتغيرات*. (وجيه البعيني، المترجمون) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.